كانت ابنتى تبكى بصوتها الرفيع الملىء بالحشرجة ، وتملأ جو الحجرة الصغيرة العارية بالألم والأسى ٠

وتحرك بقية الأطفال فى رقودهم ، وظهرت سيقانهم وأذرعهم عارية تحت الغطاء الممزق ، وصاح الولد مرة ، ثم تفوه بعدة ألفاظ غير مفهومة ، وأخيرا ، أدار وجهه للحائط وعاد للنوم من جديد٠

أما زينب ، أخته الكبيرة ذات العشرة أعوام ، فقد جلست فجأة وهى تفرك عينيها بظهر يدها ، ثم تحك فروة رأسها بشدة حتى لتكاد تدميها ٠

وعندما استكملت اجراءات يقظتها التفتت لاختها الصغيرة وأخذت تربت ظهرها بيدها فى حركة رتيبة ٠

لكن الصغيرة ، الشيطانة ، استمرت فى البكاء ، بل يبدو أنها كانت تدرك أن أختها تحاول خداعها حتى تسكت ، لقد كانت تحتاج الى طعام ٠٠ الى لبن الام ، لا الى ربت على الظهر أو غناء ٠٠٠

انها لم تذق طعم اللبن منذ ثلاثة أيام وفى أول يوم أخذتها أختها الى جارتنا لارضاعها ، لكن الصغيرة رفضت بشدة وأخذت تصيح وتبكى وقالت الجارة وهى تعيد ثديها الى صدر جلبابها :

ـ انها تريد أمها ٠٠ حتى الحيوان الصغير يعرف امه يا ابنتى ٠

وبكت زينب قهرا وذلا وهى تسب الصغيرة وتهدد بالقائها فى الطريق ٠

ـ لماذا لم تأخذك معها الى الداهية التى ذهبت اليها ؟

وأخيرا ، تفتق ذهن زينب عن حيلة ربما تكون أكبر من سنها ٠٠ أحضرت كسرة من الخبز وغمستها فى الماء حتى أصبحت كالعجينة ثم وضعتها فى فم الصغيرة ، فى أول مرة لفظتها وعادت تبكى ، لكنها مع مرور الوقت وتحكم الجوع اضطرت الى بلعها ٠

كانت زينب تحاول جاهدة القيام بكل ما كانت تقوم به الام لأبنائها ٠٠ بل وكانت الصغيرة تكافح ما استطاعت حتى لاأشعر انا أيضا بغياب أمها ٠

كانت تصحو فى الفجر ، كما كانت تفعل بهانة ـ زوجتى ـ وتحمل صفيحة المياه لتملأها من الحنفية العمومية ٠٠ وتغسل زينب معدات الشاى وتوقد وابور الجاز ٠٠ واخيرا كانت تقترب منى وتهز كتفى بيدها الصغيرة فى رفق ٠٠ وعندما تفشل هذه المحاولات كانت تناديني بصوت منخفض يعلو شيئا فشيئا حتى أرد عليها ٠

وعندما تراني وقد جلست على باب الحجرة كانت تحمل بعض الماء لتصب فى يدى لأغسل عن وجهى آثار ظلام الليل ٠

وأخيرا ، كانت زينب تقدم لى مع كوب الشاى ماعندنا من بقايا الطعام ، لقيمات الخبز الجاف وفتات الجبن ٠

وعندما أحضر عربة الخضروات الفارغة وأبدأ سيرى نحو السوق كانت زينب تقف على الباب وهى تردد ما اعتادت أمها أن ترددده من قبل ٠

ـ ربنا يفتحها فى وجهك ٠٠ ربنا يسهل لك ٠٠ نهارك أبيض ان شاء الله ٠ فى أول مرة هممت بالعودة لضربها أو سبها ، هذه الصغيرة حتى هذا لاتنساه لقد كانت كلماتها تمزق قلبى، وتذكرنى

ـ مع الصباح ـ بهروب أمها ، كل ما كانت تفعله هذه الصغيرة حتى لا أشعر بغياب أمها كان يذكرنى أكثر بما حدث، ولا يترك لى فرصة لنسيانه ان كان من الممكن نسيان شىء كهذا ٠

فجأة ، اختفت زوجتى ، أم الاطفال هربت المرأة بعد عشر سنوات طويلة ، ودون سبب معقول ، لم أكن قد ضربتها منذ عدة أيام ، بل ولم أكن قد وجهت اليها كلمة لوم أو سب ٠

ويخيل الى أن علاقتنا لم تكن أبدا مثل ماكانت عليه طوال الاسبوع الذى سبق هربها ،لو اننا كنا نعيش هكذا على الدوام لكانت حياتنا أسعد من حياة كل الناس ٠٠ أسعد حتى من حياة الاغنياء الذين يعيشون فى أحياء من القاهرة لايمكن السير فيها بعربة الخضار لكنها كانت دائمة الشكوى ٠ وما من مرة حضرت الى المنزل مع الغروب بعد تجوالى الطويل فى الشوارع والحارات الا وطلبت منى شيئا لايمكن احضاره ، أو بدأت فى الشكوى ٠

هى تعرف اننى أسرح بالخضار ، وان رزقى ـ كل يوم ـ على الله ٠٠ يوم عشرة ويوم عشرين ، كيف يمكننى اذن أن أجعلها تعيش كزوجات بعض جيراننا فى الحارة ، أحدهم عامل فى مصنع نسيج يقبض ثلاثة عشرجنيها ، والثانى كناس فى البلدية يقبض بالشهر أيضا عشرة جنيهات وكسور ٠٠ كل جيرانى تقريبا هكذا ٠

لكننى أبيع الخضار ٠٠ منذ زمن طويل ٠٠ قبل أن أتزوجها بسنوات ، وكنت ـ قبل هذا ـ أزرع الارض لكن الزرع لم يكن يفيد أصحابه فتركته الى القاهرة ٠

كيف يمكننى أن أجعلها تعيش كجيراننا ؟ لست ادرى !

يابنت الناس ٠٠ أنا لاأقبض ماهية ٠

هكذا كنت أردد على سمعها حتى تصمت عن الشكوى ، لكنها كانت تزيد وتعيد ، ثم تعدد طلباتها من جديد ٠٠ جلباب لها وملابس للاطفال وخضروات لتطبخ كما تفعل بقية الزوجات ٠٠ لكن ماذا أبيع اذا كنا سنأكل بطاطس ٠٠ وكوسة ؟ وماذا يأكل سكان الشوارع الكبيرة والعمارات الضخمة ؟

وكنت أشرح لها وأعيد تفهيمها مرة

بعد أخرى ·· لكنها كانت تردد فى صفاقة المرة بعد الاخرى :

ـ أنت الرجل ·· أنت المسئول عن طعام أولادك ·

وعند هذا الحد كنت أقوم لها لأعطيها جرعة الدواء ، دواء كثرة الكلام ·· والصفاقة ، عدة صفعات أتبعها بعدد من الركلات تجعلها تتكوم بجوار الحائط ·

لكن يبدو أن زوجتى أدمنت الدواء شيئا فشيئا ، فقد كانت تعرف دائما ما ينتظرها لكنها لم تكن تتوقف عن الكلام ·· تريد هذا ·· وتريد ذاك ·· زوج فهيمة أحضر لها ·· وابو محمود اشترى ·· ونحن نريد ···

ـ من أين ؟ هل أضرب الارض لتنتج بطيخا ؟

وكان ضربها أهون على دائما من انتاج البطيخ ·

انها تعرف الارهاق الشديد الذى يصيب جسدى كله من التجوال الطويل ومن دفع العربة ومن النداء على البامية والطماطم والبصل ·

كانت قدماى تتورمان فى البداية . عندما حضرت من الريف الى القاهرة · وكانت أكتافى تكاد تنفصل كل ناحية ··· ثم شيئا فشيئا تعود جسمى كله على رحلة الشقاء ··· كل يوم ·

وكنت أحتمل كل هذا من أجلها ومن أجل الاطفال · وهل كان فى مقدورى فعل شىء آخر ؟

ومع هذا استطاع عابر سبيل الضحك على ذقنها بعدة كلمات ·

لابد أنه كان يردد على سمعها كلمات الحب والغرام ، وكان يقنعها بأنها جميلة وحلوة · ليس هناك من سبب آخر ··

وليس من المعقول أن تكون قد هربت مع سمكرى متجول من أجل ماله وغناه !! ثم ليس من الطبيعى أن تترك الأم أبناءها من أجل المال ·

وتجلس زينب ـ ابنتى ـ أمامى وأنا أتناول طعامى ، وتحاول بحديثها الساذج دفعى الى الكلام ···

ـ كيف كان يومك ؟ هل بعت كل ماكان معك من خضروات ؟

ـ هل تريد شيئا آخر ·· ؟

ـ هل أصنع لك كوبا من الشاى ؟

وأصمت طويلا حتى تيأس الصغيرة ثم أسألها عن اخوتها ·· ماذا أكلوا ؟ وهل حافظت عليهم من الطريق ؟ ومن غسل ملابسهم ؟ وهل أخفت علبة الثقاب حتى لايلعبوا بمحتوياتها ؟

لم أكن أفكر فى كل هذه الاشياء من قبل ، لكن ، كان على فى تلك الايام رعاية الاطفال أيضا ، رضيعهم وكبيرهم ·

وكنت أعود من تجوالى الطويل لأجد الطفلة الرضيعة قد بكت حتى تورمت عيناها ، ولاجد ابنى الوحيد قد أكل نصف ماعلى الارض من طوب ورمال ·

وكان عقلى يسرح ، وقدماى تسيران على أرض الطريق ، فى مصير هؤلاء الاطفال · ماالذى سيقوله لهم الناس

بعد أن يكبروا ؟ وماالذى أقوله أنا لهم عندما يسألون عن أمهم ؟

ولم يكن تفكيرى يتوقف فى أمرى أنا أيضـــا • كيف أرفع رأسى بين الجيران وقد تركتنى امرأتى ، هربت •••• مع حبيب ! ؟

لكن غيابها لم يستمر • ثلاثة أيام فقط مرت على كثلاثة أعوام ، ثلاثة أعوام من الشقاء ••••

فى مســـاء اليوم الثـــالث عادت زوجتى •

فجأة ، كانت تقف على باب الغرفة فى تردد ورهبة ، تنتظر اذنا بالدخول• كانت تتـوقع أن أقابلهـا بالصـــياح والسب ثم بجرعة كبيرة من الضرب ، أو حتى بالقتل • لكننى لم أفعل شيئا من هذا •

كل ما صدر منى فى ذلك الوقت كان •••• الصمت والسكون • كأننى لم أعرفها من قبل ، أو كأنها لم تهرب مع رجل آخر •

ان انفعالاتى وأحاسيسى لم تتحرك فى أى اتجـاه ، وكان عقـلى كالبركة الراكدة •

وازداد اطمئنـانها فى هذا السكون فتقدمت خطـوات الى داخل الحجـرة • وكانت زينب أول من تحـــرك عقـله للتصرف ، وقفت على أقدامهـا وتنمرت لأمها كأنما ستهم بضربها ثم قالت فى بغض واضح •••

ـ أين كنت ؟ ولمـاذا عدت ••• كنا فى راحة بدونك ••• ؟

ونظرت امرأتى الى ابنتها فى انكسار صامت ثم جلست الى جـوار الصغيرين فى هدوء• ورفعت المرأة ابنتها الرضيعة الى صدرها ثم تناولت ثديها من خلف الجلباب وألقمته فم الصغيرة •

وتململت ابنتى فى نومها ثم سرعان ما بدأت تستحلب لبن أمها وهى تحرك أقدامها فى لذة وسرور عميقين •

وضمت المرأة ابنها بذراعها الآخـر ثم نظرت الى زينب طـــويلا فى صمت وأخيرا خفضت عينيهـــا الى الارض فى انكسار •

ولا أدرى ما الذى كان يشغل ضمير زينب وهى تعـود للتحرش بأمهـا من جديد كأنما تريد طردها وابعادها عن المنزل •

ـ لمـاذا عدت ثانية ؟ انك لا تريدين الحياة معنا فما الذى أتى بك ؟ ولماذا انجبتنا ان كنت لا ترغبين فينا ؟

وحاولت امرأتى أن تمد يدها لتلمس زينب وعيناها تنضحان بالأسى والحنان والحب • لكن زينب أزاحت يد أمها فى غضب وكأنما تحمل هذه اليد مرضـــا يعدى •

ثم عادت تقول فى قسوة •••

ـ لو كنت مكان ابى لطردتك الآن•

واقتربت زينب منها قليلا ، وكأنما وجـدت فرصـــة تتيح لهـا مزيدا من التحرش بأمها •••

اتركى أختى •• لا تلمسى أخى •• انهم ليسوا أبناءك •

ثم صاحت زينب فى أمها ...

ـ اتركى أختى ، لا ترضعيها من لبنك ...

وتقدمت زينب لتنزع الصغيرة من بين يدى أمها لكن المرأة تشبثت بابنتها الصغيرة ثم أخذت تمسح بيدها الاخرى رأس ابنتها زينب كأنما تترضاها . وكان وجهها ينطق بالضعف والحنان وهى تنظر الى زينب فى حب وألم وندم وترقب ..

وكلما أزاحت زينب يد أمها عنها عادت تلك تمسح وجهها ورأسها وكأنما جذبت المرأة زينب اليها ، أو كأنما انجذبت زينب الى أمها لانها فجأة كانت تسقط باكية فى حجر أمها وهى تنشج بصوت مرتفع وجسدها كله يرتعد بشدة .

ومالت امرأتى على زينب تقبلها وتبكى بينما طوقتها زينب ـ هى الاخرى ـ بذراعيها بشدة وأخذت تقبلها فى وجهها وعنقها وشعرها حيثما اتفق ...وكانت الاثنتان تبكيان فى ألم ، بكاء تملؤه العاطفة ، وزينب تردد ...

ـ لا تتركينا مرة أخرى .. أبدا..

ورقد أبنائى تحت جناح أمهم فراريج صغيرة ، وهم يتشبثون بها كأنما يخشون ان تذهب عنهم مرة أخرى .

أما أنا فقد انتحيت ركنا بعيدا ورقدت مفتوح العينين فى الظلام أفكر ...

ـ ماذا يجب على ان أفعل ؟

وفجأة أحسست بشفتين حارتين يخالطهما الدموع والندم تقعان فوق يدى . وأخذت امرأتى تقبل يدى مرات ومرات وجسدها يهتز بعنف من أثر نشيجها المكتوم .

وكان عقلى يراودنى على طردها أو ضربها وابعادها ، أو حتى خنقها بيدى فى الظلام .

لكننى بدلا من هذا كله مددت ذراعى وجذبتها الى فانكمشت فى صدرى كالقطة الأليفة .

وعندما خرجت بعربة الخضار فى الصباح وقفت امرأتى على باب الحجرة وأخذت تدعو لى كعادتها . ولقد أحسست من نبرات صوتها فى ذلك الوقت بأن كلماتها هذه أكثر اخلاصا من جميع الدعوات التى سبق أن رددتها طوال عشرتنا الماضية .